2005/04/18

ثقافة

رؤوف عباس أستاذ جامعي كتبه محدودة وليس في حياته ما يستحق أن يكتب عنها مذكرات!

دكتور عبد العظيم رمضان

*ربما كانت مذكرات الدكتور رؤوف عباس، التي نشرها تحت عنوان «مشيناها خطى»تمثل أنموذجاً فريداً لكتب تصفية الحسابات، التي ينشرها البعض تحت اسم مذكرات!
والدليل على ذلك أن الدكتور رؤوف عباس لم يكن في حاجة أصلاً لكتابة مذكرات!فليس له دور وطني تاريخي يتطلب منه كتابة مذكراته، كما يفعل السياسيون والزعماء! ولا يهم أحدا في بلادنا العربية قراءة قصة حياته، حتى ولو كانت مليئة بالصدق!
وبمعنى آخر ان السيد المذكور لم يكن زعيماً أو سياسياً، له دور يستحق أن يسجل في سجل السياسيين والزعماء، وإنما هو مجرد استاذ جامعي، يقتصر إنتاجه العلمي على أعمال محدودة، لا ترفعه بحال إلى مرتبة المؤرخين، الذين لهم مؤلفات تاريخية مهمة، تسجل اسماءهم بحروف من نار في سجل المؤرخين الكبار، كما سجل كتاب «جيبونز» العظيم، كتاب «تاريخ اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية»!
فكتبه المحدودة التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة ـ مجهولة حتى من المؤرخين أنفسهم!
وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي دفعه إلى كتابة ما أطلق عليه اسم مذكرات؟
لقد تبدى السبب عندما قرأت الكتاب فلم يكن أكثر من تصفية حسابات مع زملائه أساتذة الجامعات، وتصفية حساباته أيضاً مع الجامعة المصرية، التي قام بتلويثها وتشويه صورتها!
والمثير ما كشفه هذا الكتاب من اختفاء فن نقد الكتب في مصر!وتحوله إلى أداة للترويج للكتب، من دون أي اهتمام بمضمونها!
وعلى سبيل المثال، فلم يلحظ أحد ممن روجوا للكتاب، أنه يمثل إدانة دامغة للجامعة المصرية، كما يمثل إدانة لأساتذتها!
فهو يصور أساتذة الجامعة المصرية في شكل متعصبين ضد الأقباط، وحجر عثرة في وجه تعيينهم في السلك الجامعي!ويظهر نفسه في شكل البطل الأوحد الذي يدافع عن الأقباط!
وهي كذبة كبيرة، لأن الجامعة المصرية تحفل بالأساتذة الأقباط، بقدر ما تحفل بالأساتذة المسلمين!
والمناصب الجامعية موزعة بين الفريقين بدون أي تمييز على أساس الدين!ولم يحدث على الإطلاق أن حرم أستاذ قبطي من حقه في الترقية إلى الوظائف الأعلى، بسبب دينه!ولكن الدكتور رؤوف عباس يتهم أساتذة الجامعة بغير ذلك!
وعلى سبيل المثال، فحين يتحدث عن الأستاذ الدكتور حسنين ربيع أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة القاهرة، ورئيس لجنة التراث الحضاري، ونائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق، فإنه ينسب إليه الوقوف ضد تعيين معيدة قبطية، على الرغم من استحقاقها للوظيفة!
ويزعم أنه وقف ضد هذا التمييز، لدرجة أنه قدم استقالته، وأنه لقن عميد الكلية (الأستاذ الدكتور عبد العزيز حمودة)درساً لا ينساه!
وكل ذلك كذب في كذب!فلا يحوي سجل المؤلف في الجامعة أية استقالة!
وفي موضع آخر، يتهم النظام السياسي المصري بالتمييز ضد الأقباط، ويضرب المثل بذلك، أنه عند إنشاء معهد الدراسات الوطنية في عهد الرئيس السادات، اقترح اسم استاذين قبطيين كبيرين، هما:الأستاذ الدكتور إسحاق عبيد، والأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق، ولكن تم الاعتراض عليهما!

فيقول انه ما كاد يأتي ذكر هذين الاسمين، حتى قاطعه الرجل الجالس بجوار الوزير قائلا: «مش لازم دول شوفوا حد تاني..الأساتذة كثر» ص235.
ويتظاهر بالبطولة، فيقول انه رد مدافعاً عن حق الأقباط قائلاً:«ما معنى الاعتراض على اثنين من الأساتذة الأكفاء الوطنيين المصريين بدون سبب سوى ديانتهما؟».

من نصدق؟
ثم يزعم أن مشروع إنشاء المعهد تعطل ستة أشهر، لهذا السبب (ص 236)وهي كذبة كبيرة تظهر جهل هذا الاستاذ بتاريخ مصر المعاصر فمن الثابت أن نظام الرئيس الراحل السادات، قد استعان بالأقباط، أكثر من أي نظام مصري سبقه، ففي عهد السادات كان الدكتور بطرس بطرس غالي من أبرز رموز نظام السادات، كذلك كان الوزير فكري مكرم عبيد أحد أقطاب الحزب الوطني، ورمز من رموز الحكم، فمن نصدق:الحقائق التاريخية الثابتة، أم افتراءات الدكتور عباس؟
والغريب، ومما يكشف مشاعر الدكتور عباس الحقيقية تجاه الأقباط، ما يذكره عن استاذ قبطي مرموق، هو الأستاذ الدكتور يونان لبيب رزق، الحائز على جائزة مبارك في العلوم الاجتماعية لعام 2004 والمشهود له بالكفاءة، وكان يتولى رئاسة تحرير سلسلة كتب بعنوان «مصر النهضة» فقد كتب، يتهم الدكتور يونان لبيب بالفشل، قائلاً ان «السلسلة كانت تنشر بحوثاً غير مخططة، وكل من لديه بحث يسعى لنشره، يلجأ للمشرف (الدكتور يونان لبيب رزق)فيختار من بينها ما يمكن نشره» ص 286 .
والمثير أنه نسب إليَّ شخصياً أنني كنت وراء توقف هذه السلسلة من الكتب، وهذا الأمر غير صحيح لسبب بسيط أنه لا سلطة لي على هذه السلسلة، ولو كانت لي مثل هذه السلطة فقد كان من الطبيعي أن تنتقل إليه، عندما قفز إلى موقعي في رئاسة اللجنة العلمية المشرفة على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، فيبادر إلى إعادة إصدارها؟
ولكن هذه هي طريقة الدكتور عباس، المعهودة في تزييف الحقائق ثم انه يتهم الدكتور يونان وينتقد قبوله رئاسة اللجنة عقب إقالته وينسى أنه فعل المثل معي، عندما قبل أن يخلفني في نفس المركز ولكني لم أهتم بذلك.
ويروي قصة تعيينه معيداً في الجامعة بطريقة تطفح بالكذب، دون أن يعلم أنني شاهد على التاريخ، فيروي أنه قرأ إعلانا تطلب فيه كلية آداب القاهرة شغل وظيفة معيد بها، فتقدم لشغل الوظيفة، ولكن هذا العمل أغضب أستاذه المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، الذي لامه، لأنه تقدم لشغل الوظيفة دون استئذان الدكتور محمد أنيس، وقال له:«أنت فاكر الحكاية ايه؟ هي وكالة من غير بواب؟ إزاي تخش إعلان مش بتاعك؟ الإعلان نازل لواحد معين، ودخولك معاه يسبب لنا الحرج، ومفيش حل غير أنك تروح بكرة تسحب ورقك».وأضاف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم قائلاً:«مفكرتش تتصل بالدكتور محمد أنيس وتستأذنه قبل التقديم؟»ص 126 .
وواضح أن الدكتور عباس قد روى القصة بطريقته الخاصة، التي تتفق مع أكاذيبه، وينسى أنني شاهد على التاريخ في هذه القصة بالذات،
وحقيقة الأمر أن الجامعات المصرية، درجت في ذلك الحين على أن تعين أبناءها، ما دام لم يتقدم غيرهم لشغل الوظيفة، وهذا لعله ثابت من كلام المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم السالف الذكر، والذي أورده الدكتور عباس.
وقد جرت العادة أن يستأذن أي متقدم لشغل وظيفة معيد ـ الأستاذ المشرف، ليحصل على موافقته ومؤازرته وهو ما نبهه إليه الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم، وطلب منه الحصول على موافقة الأستاذ الدكتور محمد أنيس، ولكن صاحبنا لم يأبه لذلك.
ولقد كان في وسعي وأنا تلميذ الأستاذ الدكتور المرحوم محمد أنيس، وخريج جامعة القاهرة، ولي الأسبقية في التعيين بهذه الصفة، أن أنافسه في التقدم لهذه الوظيفة، ولكني كنت في ذلك الحين ربما لأسباب دينية أتعفف عن الدخول في منافسة مع زميل، وقد كان لهذا السبب أن عزفت عن التقدم لمنافسة الدكتور رءوف عباس في هذه الوظيفة، التي كنت أنا أجدر بالتعيين فيها وقد كان امتناعي عن التقدم لهذه الوظيفة في جامعة القاهرة، ما عرضني للوم أستاذي الدكتور محمد أنيس ولم أندم لذلك أبداً كما لم أندم مرة ثانية لعزوفي عن التقدم لمنافسة زميل هو اليوم أستاذ بجامعة عين شمس فقد عوضني الله عن تعففي بأن سبقت كل زملائي في التعيين في المناصب الجامعية، حيث عينت عميداً لكليتين هما كليتا التربية والآداب بجامعة المنوفية وهو منصب لم يحصل عليه الدكتور عباس حتى إحالته إلى المعاش وربما كان هذا هو السبب في أن اختصني الدكتور عباس بجانب كبير من أكاذيبه وافتراءاته في مذكراته المزعومة، فقد زعم أن «مذكرات سعد زغلول التي كان يتولى أحد موظفي المركز (مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر)كتابتها على الآلة الكاتبة نقلا عن الأصل الذي كتبه سعد زغلول (وهو خط تصعب قراءته) فكان ذلك الموظف (محمد

حجازي) يجتهد في قراءة النص، ويتولى رمضان كتابة مقدمة لكل جزء، بعدما أعاد ترتيب المادة بصورة تختلف عن الأصل، وتخل بقواعد التحقيق والنشر».

مذكرات سعد زغلول

وهذا الكلام إنما يدل على حقد دفين فوق أنه غير معقول وتكذبه كل الوقائع، فمذكرات سعد زغلول وهي من أجل الأعمال العلميةالتي أفخر بتقديمها للمكتبة العربية، ودرة أعمالي العلمية التي تقترب من الثمانين كتاباً هذه المذكرات، اشترك في قراءتها عدد كبير من الباحثين، ذكرت أسماءهم بالتفصيل في المقدمة التحليلية المطولة التي قدمتها لمذكرات سعد زغلول، والتي تبلغ نحو 140 صفحة، نشرتها هيئة الكتاب، وهي موجودة بين يدي الجمهور بالفعل منذ سنوات، وذكرت فيها دور كل باحث منهم بالتحديد، وكل من ساهم بجهده فيها ليس من باب الأمانة العلمية فقط، وإنما من باب تحمل المسؤولية أيضاً .

ولكن نظراً لعدم تخصص الدكتور عباس في تاريخ الحركة الوطنية أو كيفية تحقيق الوثائق كما أنه لم يسبق له أن قام بتحقيقأي عمل علمي، وبالتالي فهو يجهل تماماً صعوبة هذا العمل الشاق والذي كلفني قراءة هذه المذكرات وتحقيقها بصريا، وأنا أتحداه أن يقرأ سطراً واحداً منها، ولكنه يكذب كذباً دنيئاً، فيزعم أن الذي قام بقراءتها موظف صغير في هيئة دار الكتب، وينسى أن مثل هذا العمل يصعب على كبار الأساتذة، فما بال صغار الموظفين.

وقد زعم كذباً أن عملي في رئاسة اللجنة العلمية المشرفة على مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر قد انحصر في نشر مذكرات سعد زغلول.ويشهد على كذبه كم الأعمال العلمية التي صدرت من مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، خلال فترة رئاستي لها.

الصعود على أكتاف زملائه

وعلى رأس هذه الأعمال، كتاب الوزارات المصرية، الجزآن الثاني والثالث، وأوراق الزعيم مصطفى كامل في ثلاثة أجزاء المقالات والمراسلات والخطب، وأوراق محمد فريد، ومذكرات ابراهيم الهلباوي، وعجائب الآثار في التراجم والأخبار للمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي، وأوراق عبد الله النديم وغيرها، وهو كم هائل من الأعمال العلمية والتحقيقات صدر عن المركز أثناء فترة رئاستي للجنة العلمية المشرفة عليه، فضلاً عن الندوات العلمية الكبيرة التي شارك فيها رهط من كبار الأساتذة والمفكرين على هامش نشاط المركز.

ولم نسمع عن عمل واحد صدر عن مركز الوثائق أثناء تولي السيد عباس رئاسة لجنته العلمية، مما يوضح أنه فيما كتب كان دعيا أراد الصعود على أكتاف زملائه.

وعلى كل حال، فالكتاب محشو بالأكاذيب، وكتابة قصص روائية ينصب نفسه فيها البطل الأوحد وربما كان هذا النموذج من الكتابة، هو أبرز عيوب كتب المذكرات الشخصية، اذ يميل كاتبها إلى نسبة بطولات لنفسه لا يستحقها، وإلى تصفية الحسابات مع خصومه الشخصيين أو السياسيين.

وهذا ما دعانا في كتابنا، الذي كتبناه بعنوان «مذكرات السياسيين والزعماء»، إلى مطالبة القراء بأن يحترسوا عند قراءة هذا النوع من الكتب، لأن بعضها يكذب على التاريخ، وينسب لنفسه بطولات لا يعترف بها التاريخ، وكتاب الدكتور رؤوف عباس أنموذج لذلك، وهو ما دعا عدداً من الأساتذة الذين سلقهم بألسنة حداد، وافترى عليهم، وطعن في شرفهم، إلى أن يرفعوا عليه قضية سب وقذف تنظرها المحاكم حالياً وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الدكتور حسنين ربيع، والأستاذ الدكتور حسين نصار، والأستاذ الدكتور عبد العزيز حمودة، والاستاذة الدكتورة زبيدة عطا، والأستاذ الدكتور حامد زيدان، والدكتورة ايمان عامر.

وعلى سبيل المثال، فقد اتهم استاذاً جليلاً، هو الأستاذ الدكتور حسين نصار، نائب رئيس المجالس القومية المتخصصة بأنه نخاس ولو كان هذا الكلام صحيحاً، لاعتبر شجاعة من المؤلف، ولكنه غير صحيح.

حاقد على أسرته

على كل حال، فربما كان مما يكشف شخصية هذا الأستاذ، أن ماتظهره مذكراته أنه لم يكن حاقداً فقط على زملائه وعلىجامعته، وإنما كان حاقداً أيضاً على أسرته وعلى طفولته التي حمل أسرته مسؤولية ما عاناه فيها ومما يوضح أبعاد هذه الشخصية الغريبة المدمرة، التي لم تترك أحداً عرفته، إلا أخذت في تشويهه وتحطيمه وهو ما أورده عن أسرته هو نفسه التي يحملها مسؤولية تعاسته في طفولته على نحو فريد غير مسبوق فيروي في مذكراته كيف كره شيخ الكتاب الذي كان يعلمه القرآن، ولم يكتف بكراهية الشيخ: «ولم يقتصر الأمر على ما لقيه من عذاب على يد الشيخ، بل كان والده يقرعه كل أسبوع عندما يراه لا يحقق التقدم المأمول في الطريق إلى حفظ القرآن واستظهاره،

تمهيداً لدخوله الأزهر، وكانت جدته تروي لجيرانها قصة «خيبة الأمل اللي راكبة جمل» فأحس بالكراهية للشيخ ولاهله بل ولنفسه»

ويستطرد عن كراهيته لأسرته، فيقول:«واذا كان النحس قد فارقه عند هذا المنعطف، من حياته فان ذلك لم يضع حداً لعقده النفسية، فمنذ وعى، كان يسمع جدته تختتم صلواتها (التي تحرص عليها) بالدعاء على أمه سائلة الله أن يحرق قلبها على أولادها».

ثم يستمر في بث أحقاده على أسرته، وعلى جدته بالذات، التي يروي أنها كانت تحرمه من وجبة العشاء «وكانت ترى أن وجبة العشاء مضرة، ولا تنفعه لأنه صغير، وتناول العشاء قبل النوم يؤثر في قدرته على الفهم، وتتناول وحدها العشاء، وهو يرقبها حتى تعود على ذلك فحذف من قاموسه مصطلح العشاء»

ويستطرد فيقول ان جدته «إذا طبخت لحماً أكلته وحدها (لأنها مريضة والحكيم وصفه لها) وعندما تجرأ وأكل سرا قطعةمن اللحم ظناً منه أنها لن تكتشف الأمر، اتضح أنها تحمل معها (محضر الجرد) فاكتشفت السرقة ولعنته وأمه، لأنه (مفجوع) مثلها، وتوعدته بأنه ينال من الله عقاب السارق، فيصلى ناراً موقدة»

وبعد ذلك، نستطيع أن نقول اننا لم نقرأ أو نسمع مثل هذا الوصف البشع لأسرة، خاصة للجدة.

وإذا كان هذا الوصف الشنيع هو ما يصف به الدكتور عباس أسرته وجدته، فهل نلومه إذا افترى على زملائه، وعلى الجامعة، وقد اعترف في مذكراته بأنه كره أهله ونفسه؟

وهل يستطيع حاقد وكاره على هذا النحو، ومصاب بعقد نفسية كما يعترف هو بذلك، أن يكتب مذكرات أمينة منصفة يمكن أن ينطبق عليها وصف مذكرات .

http://www.al-majalla.com/ListNews.asp?NewsID=326&MenuID=16&&Ordering=6